حتى النهاية

بقلم
محمد الخضري عبد الحميد

فى عصر الذرة والتليفزيون والمحاولات الصاروخية الباسلة فى ميدان التطلع الى غزو القمر .. وقف « زكى أفنـــدى عبد الحق » بعوده الأعجف الساحق ، وطربوشـــه البنى الحائل ، فى غرفة من البيت نائيـــة ، يدير احدى اسطوانات « سيد درويش » القديمة ، على قرص « فونوغراف » !

ودوى فى رحبات البيت ذلك الصوت الرخيم ينبعث من الحاكى .. كأنما هو (الماضى) السحيق ذاته .. أطل فجـاة من فوهة « نفير » الصندوق ، مستأذنا مشاعر « التوقيت المحلى ! » لحظة ، فى أن « يلقى كلمة » .. ويمشى !!

وما كادت « الأســــطوانة » الدوارة تنتهى من مطلع الدور : « أنا هويت .. وانتهيت » .. حتى أحس زكى أفندى بخطوات ثقيلة تطرقع على البلاط وهى تولى نافرة مبتعـــدة .. وخطى أخرى خفيفة الوقع جــدا ، تدنو ، وتقترب ، و .. وأطل « حمادة » ذو الخمســـة الأعوام من سنى عمره وفى يده البضة الدقيقــة « راديو ترانزستور » صغير فى حجم علبة الكبريت .. انبعث منه هشيش مسرسع راقص بدأ ــ فى عــداء لاســلكى ! ــ يشوش ، بغرور القزم ، على ... « سيد درويش » !!

واوقف زكى أفنـــــدى عبد الحق دوران اســـــطوانته ، وراح يتطلع الى حفيــــده الطفل ، سائلا اياه ، وأذناه مرهفتـــان تتسمعان وقع الخطى التى ولت عن المكان بنفور :

ــ أين ذهبت أمك يا حمادة ؟

ــ راحت المطبخ .. يا جدو .. !

آه ! .. المطبخ ! .. انه ــ اذن ــ الاعداد للغذاء ! .. يا للوقت العجيب !

وشد من صديريته سلسلة ساعة جيبه ، واطل فيها ، ثم شهق مرتاعا .. الساعة فقط .. العاشرة !

وارتد زكى أفندى على عقبيه فى سهوم ذاهل وشرود ، يحدق ثانية ومن جديد فى صندوق الحاكى .. و .. لكأنه تذكر الآن فحسب أن سترته قد نالها الكثير من ذرات الأتربة الكثيفة الراكدة ، التى كان قد نفضها عن « فونوغرافه » العريق بالغ القدم ! .

كان غريبا أن يصدح هذا الصندوق العتيق الصامت بعد سكوت دام عشرات أعوام ! .. وانه ـ حتى بعد أن أداره ثم أسكته ـ ليس يدرى كيف ساقته حوافز خفية الى أن يزيح عنه النقاب ، ويستنطقه بعد كل ذلك الزمن بعض ما فى جعبته من ترانيم ولحون .. !

لا ، ولا يدرى كذلك ما الذى جعله يفكر فى يومه ذاك بالتحديد ، وبتأمل واستغراق عميقين .. فى (المرحوم) ابيه .. وكيف كان يؤثر هذا الحاكى الكلاسيكى بأعزاز كان فى الماضى البعيد مضرب المثل فى الوفاء بين الانسان واخيه الـ ... الجماد !!

« أنا هويت .. وانتهيت » !! .. غناها زكى أفندى عبد الحق بنفسه ، فجأة ، لا كما يكون الغناء .. ولكن كأنما أراد أن يطرد هاجسا كئيبا طاف بذهنه .. ولابد من أن الهاجس كان أكثر كآبة مما يحتمل ، فقد انعكس الاحساس به .. على الصوت الغنائى الحزين الناشز الذى قذف به من حنجرته .. فان (حمادة) الصغير هتف به فى براءة طفولية لاذعة :

ـ « صوتك فظيع يا جدو » !!

ـ فظيع ! .. فظيع فعلا يا حمادة !.. ذلك لأننى .. لأننى (هويت .. وانتهيت) !

ان زكى افندى ، بالرعشة الحائرة التى غلفت صوته ، لم يقصد بـ «هويت» الهوى الذى عناه المغنى .. وذلك ما وضح له أيضا أخيرا .. عندما اكتشف اختياره ـ بلا ارادة ـ ذلك الدور بالذات ! .. أجل .. انه قصد معنى مغايرا للمعنى كله ! .. انه يصارح نفسه الآن بما كان يمور فى أعماقه ! .. « نعم .. أنا هويت الى أسفل .. وانتهيت الى الأبد » !!

.. ولم يطق مجالدة هذه المشاعر الضارية التى لم يكن له بها من قبل سابق عهد ، فلم يعتد قبل ذاك لها نزالا ! فتناول عصاه ذات المقبض العظم والسن النحاسى المدبب .

.. ومرق من باب حجرته خارجا بسرعة مباغتة .. حتى لقد كاد يسقط لعبة الطفل المشدوه من بين أصابعه ، وأوشك ان يرتطم بزوج ابنه العائدة لتأخذ ولدها .. ولتسأله هو ، وقد بهتت لهيئته ، ماذا يفضل أن يكون عليه صنف طعام الغداء عند أوبته ! ولكنه اجابها وهو ماض الى الباب بغير أن يلتفت وراءه :

ـ « لا تعملى حسابى على المائدة ! . سأتغدى خارج البيت » !

أترى أن الأمر على هذا النحو ؟! ..

انه يذكر الآن ، وبوضوح ! .. يذكر انه كان غلاما ، عندما أودع أبوه على المعاش فاحضر الأب اليائس ذلك الحاكى ليكون سلوى له فى وحدته وقت فراغه ، بعد اذ صار كلّ وقته .. فراغ !!

ان التاريخ اذن كما يقال ــ ومن حيث لا يشعر ــ يعيد نفسه .. !

ها هو ذا أيضا يجرب فى صبحه الجهم الحزين نفس المحنة التى مر فيها أب له من قبل !.. انه اليوم يدرك كيف يكون قتامة اليوم الأول الذى يأتى بلا عمل على الرجل الذى لم يعتد الا العمل والعمل ! .. وأى عمل ؟! .. ان ذلك الذى كان يكابده (زكى أفندى عبد الحق)

قطب « ادارة شئون الموظفين » بالمصلحة لم يكن عملا مجرد عمل .. وانما كان « حربا » وأى حرب !! .. ولكن .. ويا للعجب .. كانت على أية حال ليست ابدا كهذه الحرب الداخلية الضروس التى نوجىء بها تندلع .. ليس خارجا هناك على مسرح « قلم الموظفين » .. ولكن هنا .. فى اعماقه وداخل صدره هو ! هيه ! .. لا فائدة من كل شىء ! .. ان اربعا وثلاثين سنة مرت ــ بكرها وفرها ــ كحلم ، حى ، حار .. وها قد حان الوقت ليتجرع مرارة الصحو المرير ، ذى الصقيع .. !

« .. كم كنت غبيا ، والناس أذكياء ، ومع ذلك ــ ويا للسخرية ، فاسمى : زكى .. أفندى » !

وضحك وهو يخز فى شدة أسفلت الشارع بطرف عصاه المعدنى المدبب ، مهمهما لنفسه ثانية : « .. ولكن هل كنت ــ حقيقة ــ بهذا القدر الذى اظنه من الغباء ؟! .

.. صحيح أن مندراوى أفندى ذا « تسع السنوات خدمة » لم تهل عليه فى المصلحة سنته العاشرة الا وقد فرغ من بناء الدور الأول على قطعة أرض لا بأس بها مساحة وموقعا !

.. لا والا فتوح أفندى (الشفاط) !

ذلك الثعلب المرن الذى يعطيك من طرف اللسان نواحا وأنينا .. بينما فلوسه « تشتغل ! » .. فى الحديد الخردة تارة ، وفى « مغلق خشب » أو فى « الكسب والدريس » تارة أخرى !! .. ناس تعرف تعيش ! .. ولكن لا !! .. انهم فى نظرى لا يعيشون ! .. لطالما كنت أوقفهم أمامى جرذانا تهتز وترتعد عندما يجلجل صوتى كهزيم الرعد وأنا أعلن تمسكى بمبدئى الخالد : (الأصولى .. لآخر رمق ، وحتى النهاية) ! .. فاحطم بذلك جهرا وعلنا ، ما كانوا من وراء ستار يرتبون وينسجون ! ..

لا لا ! .. لن أكون قط كمنـــدراوى افندى .. او فتوح أفندى الشفاط ! . لقد سمى بيننا بلقب (الشفاط) لأنه لا يستحرم من (شفط !) أى شىء .. ولو (شلن) .. ولو سيجارة .. لكى « يسهل » .. و .. « يمشى » !!

ها ها !! .. ضعف ! .. حقارة ! .. خلل مما فى تلك النفوس ولا ريب ! .. ومع ذلك ، كان هذا الشقاط الألعبان يتهرب بكل الوسائل من سداد حساب (البوفيه) على الكامل ! .. كان يكاد يبكى وهو يستعمل فى العدد أصابع يده كثيفـــة الشعر مقســـما أيمانا عديدة مغلظـــة تفرقع فى الهواء من فمـــه ، بلا حرارة ، كأنها طلقات مسدس أطفال ، وكل ذلك لا لشىء الا ليغالط فيما عليه من (زمامات) يسيرة لهذا او ذاك ! . نحمده ! .. حمدا لله على أية حال ! .. حقـــا لقد خرجنا الى المعاش ــ دون (حمص !) يذكر ــ وانما على الحميد المجيد ، وأنعم به وأكرم .. هو سبحانه خـــــير مثيب ! .. ولـــكن .. آه يامندراوى ! . أيها الجرو ! .. أنا واثق من انه يكرهنى ! .. وانى ــ بصراحة ــ أبادله ذات الشعور ! .. اذ كيف أنسى يوم أن هممت بدخول المكتب فاذا هو ــ قليل الذمة ! ــ قد وقف منحنيا الى جوار « شـــانون » الملفات ، باسطا ذراعيـــه ، ملتوى الشفتين بصـــورة كوميدية تهريجية مواجها زملاءه فى رعدة مسرحية ســـخيفة ، وهـــو يردد عاليا كالببغاء مقلدا بسخرية « لا يافندم ! .. الأصول لازم تمشى ! .. الأصول ! .. لا شىء الا الأصول .. لآخر رمق .. نعم .. لآخر رمق وحتى النهاية » !

« الجبان !! .. لقد اختتم يومها تلك الأمثولة السمجة بكلمة من عنده قالها كتعليق ، مشـــوحا بذراعه فى ازدراء : « آخر رمق ، آخر رمق .. أنا عارف متى ينتهى رمق هـــذا الرجل » ؟! .. يقصـــدنى أنا صـــغير النفس هزيل الأخلاق ! .. آه ! .. غاب السبع الآن ! ألا فلتمرح الأرانب ! .. انه يوم عيدهم دون شـــك ! .. أقسم أنهم يريقون الشاى وسجائر البلمونت أنهارا وتلالا ، احتفـــالا بخروجى من بينهم بلا رجعة الى رفوف المعـــاش ! .. أوه ! .. البرد يكاد يجمـــد أطـــرافى .. ومع ذلك ــ يا ربى حكمتك ــ أكاد أختنق ! . كم الساعة يا ترى الآن ؟! .. ياه ؟! .. فقط ؟! .. الحادية عشرة فقط ؟! .. ما أطـــوله من يوم ! .. كان اليوم فى الشغل يمر دون أن يحس به المرء ! .. كنت ما اكاد أحل بضع عقد ومشكلات حتى أشعر من حولى بحركات الأدراج تقفل ، والدوســـيهات يعاد رصها ، والمفاتيح تصر من أبواب ودواليب الصاج ، فأصيح باستنكار فى موظفى مكتبى :

ــ ما الخبر ؟! .. بدرى جـــدا على المواعيد يا جماعة ... !

فاذا بذلك الذئب فتوح الشـــفاط يجيبنى ــ وهو الذى كان ، على ما أذكر يجيب فى كل مرة ، وفى مسكنة مصطنعة وذلة خبيثة ودود :

ــ الســـاعة ٢ خلاص يا أســـتاذ عبد الحق !

فاذا ما صفعته مفحما بقولى : « ولكنها الثانية الا الربع يا سيد فتوح ! » ، لم يكن يعدم الدلالة المجوجة ليرد برقة اكثر خبثا : (الربع للمواصلات ! .. أحتى هـذه ايضـا فيها (أصول) و (لآخر رمق) ، و (حتى النهاية) ؟! . يا أستاذ عبد الحق قطعت رمقنـا ، ارحمنا يا شيخ الله ما يسيئك » !! .. ويضحك ويقلبها (نكتة) بخالها ظريفة ، وهو أثقل المتظرفين ! .. لعنة الله عليه ! و – بالمرة – وعلى الذين حواليه ! .. ترى من يكون خلفى المسـكين رئيس القلم الجديد ؟! .. أيا كان فلا أظنـه سيحتمل لواء الرسالة الحازمة القويمة التى كنت أنهض بها ! .. كائنا من يكون فانى أدعو له بالتوفيق ! .. اسـال مجربا ! .. ما أصعب حرب المبـادىء ولكن ما أقل هواجسها ! .. هيه ! .. الله ؟! .. ما هذا » ؟!! .

هنـا كان زكى أفندى عبد الحق قد فوجىء بنفسه يدلف ، مسوقا بقوة خفية لم يفهم كيف دفعته هكذا دفعا دون ان يدرى ، الى باب المصلحة .. !!

اهتز كله بعنف ! .. ودفع بيديه فى الهواء الى الأمام باحداهما عصاه ، وقد تصلب جسده وتقلص كقط ظلى سارح فوجىء بغتـة بنباح كلب ! .. ومال بجماع قوته الى الوراء .. لكأنه كان يريد أن يتخلص – لا اراديا – من شىء غير منظور يشده ويجذبه الى الأمام صوب الباب الحديدى الكبير .. لكى يرتد الى الخلف فـسـار من ذلك المـكان ! .. ما الذى أتى به الى هنا ؟! .. كيف لم يلحظ ؟! .. نفس الشارع والمنحنيات التى اعتادها ذهابا وأوبة طوال أكثر من ثلاثين عاما ! .. ولكن اليوم ؟! .. كيف لم ينتبه ؟! .. كيف أقبل مسحورا الى هنا ؟! .. ولكن .. ما الفائدة الآن ؟! . حتى اذا كان قد جاء ؟! .. لقد انتهى كل شىء ! .. توقفت العقارب وانزاحت بعيدا عن (فلك) الميناء ! .. نعم .. ذلك هو الواقع والحق يا .. يا سـيد عبد الحق ! .. « أنا هويت ، وانتهيت ، على رأى سيد درويش » !!

●●●

نعم ! .. هو ذاك ! .. ما عاد له بعد الآن حضور الى رحاب الذين يعملون !

« آه ! .. يعملون ؟! .. هاهاها » ! .

وابتسم زكى أفندى لهذا الخاطر الساخر الذى صورت له فيه مخيلة الذكريات . زملاء القلم من موظفين ومستخدمين ، وكيف هم فى مواقع الأمر يعملون ! .. انهم « يعملون كل البدع ! » لكى ينفذ الواحد منهم خلال « خرم ابرة » بلمحه فى اللوائح والنظم ، يصل بعده الى ترقية عامل قبل دوره .. أو نقل مستخدم الى جهة يرغب فيها .. أو ادراج عتل كسول فى قائمـة المجدين مستحقى مكافآت التشجيع ! .. وذلك كان يمكن أن يتم وفقا لقاعدة « تراعينى بقيراط .. أراعك بائنين » ! .. لولا أن كانت تثب عليهم فى اللحظة المناسبة زمجرة المبدأ الباتر الحاسم الناصع : (الأصول لآخـر رمق .. نعم ، لآخر رمق وحتى النهاية » ! .. فيتراجعون مذعورين .. ويلوذون منكمشـين وراء الترابيزات

وخلف الدواليب ، وكل منهم يغمغم بقفاه ، ملقيا مسئولية التعرض للمسالة اصلا على عاتق الآخر ! .. اخص ! .. يا لها كانت ضمائر ميتة » !!

كان المارة فى ذلك الوقت يسرعون الخطى فوق أسفلت الشارع الذى تحول بفعل رذاذ المطر ونتف الثلج الى مرآة عريضة ، لا نهائية الطول .. كانوا لا يملكون فى اسراعهم داخل المعاطف الثقيلة وتحت الشماسى الا أن يرمقوه بنظرات عجب ودهش ، وهم يرونه فى منتصف الميدان منتصبا وحده ، شاخصا ببصره تجاه مبنى المصلحة ، فى استغراق كلى ذاهل .. كانه ـ وهكذا كان تماما ـ تمثال حى أقيم أمام الباب الحديدى .. لشخص غير معروف .. يومىء بالعصا التى فى يده الى (شىء) غامض مجهول .. !

والواقع ان زكى أفندى نسى نفسه تماما .. ولا أحد يدرى كم من الوقت كان يمكن أن يظل على وضعه ذاك المتخشب ، لولا أن ايقظته من ملكوته صيحة الساعى (عبد الجليل) وهو يناديه مدهوشا ، فى عاطفة بسيطة صادقة :

ـ من ؟! .. عم زكى أفندى ؟! .. أنت هنا ؟! .. حمدا لله على سلامتك ! والله لقد بانت لك وحشة من أول يوم .. !!

انتزع هذا الصوت «تمثال الميدان !» الشارد ، الذى كاد يتجمد تحت الصقيع دون أن يشعر ، من سرحته الطويلة العميقة .. ففرك عينيه .. ونفض رأسه بقوة كادت تطيح بالطربوش المبتل من فوقها .. وراح يحملق بعينيه ويغمضهما مرارا كأنما ليطرد كل أثر باق لـ « نعاس الصحو ! » الذى كان قد استلب حواسه جميعا .. ثم سلم على ساعى مكتبه الوفى ، بألفة ومودة .. و .. وساله الى أين هو خارج .. فاجابه الساعى وعيناه ما تزالان مثبتتين على رئيسه السابق :

ـ خارج اشترى لهم سجائر ، وسندوتشات .. !

ـ مشـــوار بعيـــد عليـــك ، يا عبد الجليل .. !

ـ لا بأس يا أستاذ عبد الحق .. أما شرفتنا لنسقيك فنجان قهوة ؟!

ـ شكرا .. انا .. أنا كنت اعتمدت لك دراجة فى الميزانية الجديدة يا عبد الجليل ، توفر عليك تعب المشوار .. لا تنس تسالهم ينفذوا لك الموضوع .. !

ـ ربنا يخليك يا عم زكى أفندى .. طول عمرك جد .. وتحب الجد .. !

ـ ها ها ! .. وهاك آخر الجد .. !!

ـ مالها آخرته ؟! .. آخرته (فل) ان شاء الله ! .. تصدق بالله ؟ والله .. كل المصلحة تشـهد لك .. واليوم فى سيرتك الحلوة .. كلهم .. كل الأقسام فى حزن عليك .. المخازن ، والمشتريات والحسابات ، والدفترخانة ! .. الكل والله !

ـ هـــه ؟! .. ومنـدراوى ؟! .. وفتوح ؟! .. وسيد ؟! .

ـ هـــؤلاء وأمثالهم دعك منهم ! .. وعلى العموم .. فتـوح أفنـــدى الشف .. آسف ! .. هو غائب اليوم .. أصل واحد بقال رافع عليه قضية .. !

وخشى زكى أفنـدى أن يسترسل عبد الجليل الساعى فى سرد أشياء عن (زميـــل) له ، فصرفه بالحسنى .. ومضى الساعى الطيب لحال سبيله وهو يتمتم بأدعيات ساذجة .. ولكن ميزتها انها : مخلصة !

وتنبه الى أنه وقف أكثر مما يجمل فى مكان ما كان له أن يأتى اليه ، وفى يومه ذاك على وجه التخصيص .. فلقد صور له الخيـال أنه يتلصص على عالم لفظه ونفض يديه منه ، بعد أن ألقى (بقاياه) خارج نطاقه ! .. ان ذلك يعد تجسسا على شكل ما !! ..

ودفع قدميـــه بصعوبة لتعـــاودا المسير .. وان كان قد ترك العنـــان للصور المتداعية سريعة التوارد تعيـــد كرتها جوالة فى ذاكرته مرة أخرى ..

« اهنا يا مندراوى ! .. أما نحن فهل سنأخذ زمننا وزمن غيرنا ؟! .. اننى الآن أعرف بالضبط ماذا هـــو حادث الآن فى الداخل ! .. مندراوى أفندى زمانه سحر رئيس القلم الجديد بتزلفه الممقوت الذى هو ـ لا جدال ـ تقدمه بعد العدة بعدها لخرق تقليد قويم ! .. أما فتوح فما يكاد ينتهى من (كروتة) البقال الذى قاضـــاه ، بدمعتين على كمية من الأيمان الحانثة .. حتى يعود الى المكتب داخلا فى تأدب وعلى استحياء وبقناع حزين .. مؤكدا لرئيســـه انه عائد لتوه من لدن الطبيب بعد أن كشف على مرض ابنته واشترى لها الدواء !. الكذوب !! .. ولا علة ولا عليـــل أبدا هنالك !! .. لو أننى انا لكنت قد شطبت بالأحمر أمام اسمه فى سجل (الحضور والانصراف) ، ولأجبرته ، غصبا ، على العودة من حيث جاء .. مرغما اياه على تحرير (أجازة عارضة) ! .. أنا أدرى الخلق بالاعيبـــه ! .. ولكنه (يعملها) متكلا فى كل مرة على ذلاقة مندراوى أفندى الى حين حضوره ! .. وان تغير الوضع وقتا آخر ، وتأخر المنـــدراوى .. فان فتوح « وفاء للواجب ! » يقوم

عنه بنفس المرافعـــة ! .. يســمونها زمالة ! .. انهـــا هى حكاية (شيلنى وأشيلك) ! .. تبا لهم ! .. جميعهم !.. اخص على ذلك كله ! .. فقـــد .. ماذا ؟! .. ما هذا ؟! .. من ذا الذى ينادينى » ؟!!!

فعلا .. كانت المعلمة (مفيـــدة) صاحبة المقهى المتنقل الصغير .. هى التى أقبلت مهرولة اليه ، تناديه :

ـ سى زكى أفندى ؟! .. كيف حالك يا رجل ؟! .. سلامة حسك ! .

ـ سلامات يا معلمة ! .. اشـــتقنا والله الى شايك النقى المضبوط .. !

ـ حلفتك بالنبى .. تعال .. احك لى .. واشرب الشاى !

و .. ولم يكسفها ! .. كانت ـ كما كان يسميها ـ العصامية الطيبة جارتنا ! أى جارة (المصلحة) الوفية ! .. عندما لم يكن يعجبـــه شاى (البوفيه) كان يستورد براريد الشـــاى وكنك القهوة منها .. وعرف جودة بضاعتها الآخرون ايضا .. وعلى مر الأيام صار لها عملاء كثيرون لم يستطع (البوفيه) الرسمى انتزاعهم من حوزتها ! .. خســارة حقا فقد مثل تلك الجارة المسايه ، الوسيمة ، خفيفة الدم كذلك ! .. وتحادثا طويلا . ولكنه لم يدر بعد التحايا ماذا قالت له ، وبم اجابها .. !!

كانت قد شعشعت فى مخـــه فكرة جديدة طرأت لساعتها .. !

كانت الفكرة الطارئة ، بنت اللحظة ، قد شب لهـــا أوار داخل فكره الهائم الدوار .. فالهته قوة تفجرها عن المعلمة وشـــايها .. وعن كل كلمة بعد ذلك قالتها !!

واستأذن منها وانطلق طائرا الى البيت وهو يكاد يشب وثبا .. !

وفى البيت تلقته جنازة صامتة .. !

●●●

لقى على السلم حفيـــده (حمادة) الطفل الذى صاح فور أن رآه :

ـ جدو ! .. جـــدو ! .. جدو هنا يا ماما ! .. افتكرنا انك تهت يا جدو .!

ولكن « جدو ! » تجاوزه الى الداخل مسرعا ، وهو يكاد يعدو عدوا .. ليجد فى الصـــالة ولده وزوجـــه وقد رفعا راسيهما ماخوذين من اطراقة كانت على ما يبدو طويلة حزينة ..

وهب ابنه واقفـــا يتنهد بارتياح ، ويسأل فى رفق :

ـ بابا .. أين كنت ؟! .

وئنت زوج ابنه قائلة :

ـ عمى .. أهكذا تتركنا حتى الآن فى انتظارك من غير غداء ؟! .. من غير ان نعرف اين أنت ؟!

لم يتذكر انه كان قد قال لها الا داعى لعمل حســـابه على مائدة الغداء ! .. نسى ما كان تماما ! .. بل انه حتى لم يلحظ أنهـــا ربما قـــد حكت لولده

ـ زوجها ـ كما كانت عليـــه حاله فى الصـباح ! .. تلك الحال التى تغيرت كلية وصـــارت على النقيض مما كان بشكل جد واضح ! ..

وجلس زكى أفندى عبد الحق بحيوية وحرارة .. وصفق فى مرح طالبا الطعام وهو يردف حمادة على ركبته قائلا لابنه بينمـــا زوجة الابن ذهبت مسرعة فى ارتياح الى المطبخ :

ـ لا تشغل بالك من اجلى .. !

ـ حســـنا يا أبى .. فقط اشركنى فيما تنتوى عمله .. انى أرجـــو أن تعتبر زوجتى بمثابة ابنتك .. تخدمك و .. أنا اقصد رأيى أنا .. ان كنت يعنى تشعر بمضض لأنك تفتقد المرحومة أمى .. ف ... فانك بفضـــل الله لا تزال .. أعنى من ناحية السن ..

غير أن زكى أفندى أطلق ضحكة مدوية طروبا وهو يهدهد كتف ولده الشاب فى حنان ثم قاطعه بمرح دافق :

ـ ما هذا الكلام الذى يدور فى عقلك يا ولد ؟! .. لا لا .. ان ما يشـــغلنى الآن ليس هـــذا .. اننى مشغول بمشروع .. مشروع أواصـــل به أداء رســالتى .. سأســتعمل امكانياتى فى شىء .. بشرط أن يكون هذا الشىء يدلّ على شىء !!

ثم أردف فى حزم رهيب :

ـ نعم .. ان رسالتى لن تتوقف .. لن أدعهم يهنأون بتصورى كما مهملا ! . سانغص حياة الذين حاربوا مبدئى .. سأتعب ضمائرهم الهشة صبح مساء !!

ـ هو هذا يا ابى ! .. ولكنى لم أفهم ! على أية حال .. فها هناك لديك كل وسائل التسلية .. فونوغرافك .. والراديو .. والمكتبة .. وحديقتنا الصغيرة !

لكن زكى أفندى عبد الحق ، وقد توثب نشاطا حماسيا هائلا ، عاد الى كتف ابنه يربتها من جديد ، وبضحكات أخرى أعلى دويا وأكثر تحررا وانطلاقا ، يطلب اليه أن يلزم الصمت .. !

ثم انفجر على حين غفلة ، فى ضحكة جديدة من نوع آخر ، قال بعدها :

ـ فكرتنى بالفونوغراف ! .. دعهم ، لو سمحت ، يعيدوه الى أكفان الجوخ التى كان ملففا فيها ! .. انه لا يفلح الا فى قولة : (أنا هويت ! .. أنا انتهيت) !! .. لا لا ! .. أنا ان تاقت نفسى للأغنيات .. فسأستمع اليها مع (حمادة) من مذياعه الترانزستور الصغير ، هاهاها ... !!

* * *

وخلال الأسابيع القليلة التى تلت ذلك النهار الحافل .. كان (زكى أفندى عبد الحق) يصحو فى الشروق ، وينطلق من البيت فلا يعود اليه الا لينام ! .. كان مشغولا بشىء كبير يلتهم كل وقته .. بيد أنه كان فى الدقائق التى يقضيها فى البيت نهارا .. يملأ الحجرات ضحكا سعيدا طروبا ، وهذرا .. حتى لقد أصبح « حمادة » يفضل صحبة « جدو ! » على رفقة أبويه كليهما .. !!

* * *

وذات صباح .. فوجىء موظفو المصلحة وعمالها وهم يتدفقون من كل صوب فى مواعيد الحضور .. فوجئوا برؤية (كشك خشبى) أخضر كبير ، فى مواجهة بابهم الحديدى العريض مباشرة .. ينتصب قبالتهم شامخا عاليا كالهرم .. يطل من أحد شبابيكه الأنيقة بين علب السجائر والمربات .. وجه يعرفونه جيدا .. وقد اصطفت على جوانب قمة الكشك الهرمى لافتة مضاءة ، ضخمة جدا ، مكتوب عليها من كل اتجاه فيها ، بالخط الملون الكبير اللامع :

« بقالة الأصول لآخر رمق ، لصاحبها : زكى عبد الحق » .

ثم .. وبخط أكبر وأشد ضخامة ولمعانا .. كما لو كان نذير تحد هائل ، دائم :

« نعم .. لآخر رمق ، وحتى النهاية » .. !!!